السنة النبوية في مواجهة الاستشراق

● أنور الجندي ●

لقد جاءت الحملة الضارية على السنة النبوية كجزء من خطة واسعة من مخطط التغريب والغزو الفكري الواسع المركز الذي يستهدف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والشريعة الاسلامية والقرآن الكريم ، والذي كشفت عنه مخططات التبشير والاستشراق منذ اكثر من قرن من الزمان .. وقد جند له عدد ضخم من خصوم الاسلام من المستشرقين ومن دعاة التغريب واتباع مدارس الارساليات في المشرق في محاولة بائسة لتدمير هذه المنابع الأصيلة من الفكر الاسلامي وخاصة في مجال العقائد والقيم الأساسية التي قام عليها المجتمع الاسلامي .

« لقد جند الاستعمار بعض المستشرقين ـ كما يقول الدكتور مصطفى السباعي ـ لتسميم هذا المنبع الروحي ، فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي والتفكير الحر ... وجاء نفر فوقعوا في الفخ ، وراحوا يروجون بضاعة الغزاة ، أما عن جهل بحقيقة التراث الاسلامي ، أو عن انخداع بالأسلوب العلمي المزعوم ، واما عن رغبة في الظهور بمظهر التحرر العقلي وشجاعة الرأي ، واما عن انحراف فكري ووجداني بتأثير الاستهواء » ...

ويشير الباحثون في هذا المجال الى ان الحملة على السنة كانت قديمة ، وان الذين جددوها من المستشرقين ودعاة التغريب لم يزيدوا على ان اعادوا ترديد الشبهات القديمة التي رددتها المجوسية والشعوبية ودعاة التاويل والتشبيه والمتاجرون بالشبهات والمفتريات من قديم ...

أن هدف الغزو الفكري وحركة التغريب هو هدم مفهوم الاسلام الصحيح الجامع المترابط من القرآن والسنة : بين النص القرآني المنزل ، وبين السنة التي يتمثل فيها التطبيق العملي من حيث عمل الرسول وبيانه وتفصيل لما اجمل ، وتوضيح ما بلغ ، او تقييد لمطلق ، او تخصيص لعام : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ولقد تعددت جوانب الشبهات المثارة حول الشريعة وحول سيرة الرسول ،

● لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين للناس القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتى ، وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب متعددة ويبين لهم ذلك بسلوكه عملاً وقولاً ..

وحول القرآن ، وقد تولى علماء كثيرون دحض هذه الشبهات وكشف زيفها ، ثم جاءت في السنوات الاخيرة تلك الدعوى الزائفة التى تحاول ان تقول «ان القرآن وحده يكفي» . وقد دأب قوم في السنوات الاخيرة الى توجيه الاتهامات الى مصادر السنة ورجالها .

وقد كتب هذه الأشياء مستشرقون لهم ولاء سياسي وولاء ديني معارض ومخالف للاسلام والمسلمين . وقد اعتمدوا في ذلك على خيوط جمعوها من فكر المعتزلة وغلاة الشيعة وحكايات الأدب التى كان مؤلفوها موضع الشبهة في أمرهم وتخريجهم للحقائق ... وكانت ابرز مقاتلهم هى الاعتماد على كتب النوادر والمحاضرات والحكايات التى لم تؤلف لتاريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق العلمى والتى جمعت من المجالس وكانت مادة التفكهة والتسلية ... وهذه لا يمكن ان تؤخذ منها الأدلة والشواهد ، وقد صدق من قال : ان علم الحديث لا يؤخذ من كتب الفقه ، وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة ، لأن لكل علم مصادره التى تعرف منها حقائقه وقضاياه ... اما الاعتماد على حياة الحيوان للدميرى ، أو ثمار القلوب للثعالبى ، أو مقامات بديع الزمان – للفصل في قضايا السنة ، فذلك هو التزييف الشديد ...

● السنة جزء من القرآن ●

ولقد كانت ظاهرة تسجيل احاديث القصاص ونوادر المجالس من السموم الناقمات التى أفسدت العلم الصحيح واعتمد عليها أهل الباطل حتى قال ابن الجوزى : انه ما أمات العلم الا القصاص ... وللسيوطى كتابه « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » وقد أورد منه فصلا في انكار العلماء على القصاص ما أوردوه من اباطيل .

وحين تراجع تلك الشبهات المثارة حول السنة فيما أورده محمود ابو ريه او حول الشريعة الاسلامية فيما أورده على عبد الرازق – تجد واضحا ان النصوص كلها المعتمد عليها مستمدة من كتب الروايات ، ونوادر المجالس ، لا من كتب السنة او الفقه . وذلك هو «المنهج العلمى » الذى قدمه المستشرقون واتباعهم لتزييف المفاهيم الأساسية والأصيلة بالاعتماد على كتب الف ليلة والأغانى وغيرها من كتب الشعوبيين واعتبارها مراجع لمضاهاة العلم الصحيح ، واثارة الشبهات في وجه الحقائق العلمية الأصيلة .

ونحن نجد ان كل الذين حملوا لواء الشبهات حول السنة النبوية قد اعتمدوا على مصدر أساسى هو كتاب جولد زيهر « العقيدة والشريعة في الاسلام) الذى ترجم وطبع .

ولا ريب أن مؤلفات كثيرة تحمل أهواء الاستشراق والغزو الفكرى في محاولة انتقاص السنة النبوية ، الى جانب الشريعة والقرآن وتاريخ الرسول والفكر الاسلامى كله ، ولا ريب ان دعوتها الى اثارة الشبهات حول

الحديث النبوى والدعوة الى الاكتفاء بالنص القرآنى عمل خطير ، هو محاولة للفصل بين النص والتطبيق ... والتطبيق فى الاسلام اخطر الجوانب واهمها : هذا التطبيق المتمثل فى الاسلوب الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ النص القرآنى ، ومن هنا فان النص القرآنى وحده لا يكفى المسلمين اليوم ، ولا يحقق لهم اسلاما حقيقيا ، هذا فضلا عن ان السنة جزء من القرآن بنص القرآن **« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » فهذا البيان الذى يفسر للناس ويطبق ، هو باقرار القرآن نفسه جزء اساسى .**

وحين يراجع الباحث كتابات المستشرقين يجد ان موقفهم من السنة هو جزء من موقفهم من القرآن وسيرة الرسول تماما ، فان السنة هى جزء من حياة الرسول ، وهى تفسير القرآن ، فلابد ان تنالها الشبهات وتصل اليها السموم وعوامل التزييف .

يقول العالم الفرنسى المسلم ، اتيان دينيه : انه من العسير ان يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول او يدرسون سنته . وقد صرح فى مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد) . انه من المتعذر بل من المستحيل ان يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة ، وانه من اجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم مبلغا غطى على الواقع واخفى الصورة الحقيقية ، وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لاساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى المحايد ...

وقد عرض اتيان دينيه لكثير من اتهاماتهم للنبى ورد عليها واتخذ من « لا منس » مثالا واضحا على صحة ما ذهب اليه وحكم به .

● اشبعوها بحثا وتمحيصا ●

تتركز شكوك المستشرقين فى السنة حول تأخر تدوين الحديث ، فهم يرون ان تأخر تدوين الحديث الذى بدأ فى المائة الثانية للهجرة قد اعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا فى الحديث وفى وضع أحاديث لخدمة اغراضهم . يردد هذا جولد زيهر ، ودوزى ، وسبرنجر ...

وقد شك « جولد زيهر » فى صحة وجود صحف كثيرة فى عهد الرسول ، راميا من وراء ذلك الى اضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها فى الصدور ، وهو يرمى ايضا الى وصم السنة (او اغلبها) بالاختلاق والوضع على السنة المدونين . وهو يزعم ان هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الاحاديث الا ما يوافق هواهم . ويرى « سبرنجر » فى كتابه (الحديث عند العرب) أن الشروع فى التدوين وقع فى القرن الهجرى الثانى ، وان السنة انتقلت بطريق المشافهة ، اما « دوزى » فهو ينكر نسبة (التركة المجهولة) كما يسميها من الاحاديث الى الرسول .

وقد رد عليهم كثير من الباحثين المسلمين داحضين هذه الاهواء الموغلة فى الحقد والخصومة ، رد عليهم مصطفى السباعى ، وابو الحسن الندوى ، وصبحى الصالح ، وعشرات غيرهم ...

● اولا — ما اورده الدكتور مصطفى السباعى حين قال :

حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ونقله ، وحرص رجال التابعين وتابعى التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد . وما قام به علماء السنة من جهود جبارة فى تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم ، وبيان ما زادوه فى السنة من احاديث مكذوبة ، حتى جمعت السنة فى كتب صحيحة ، واشبعها النقاد بحثا وتمحيصا ، ثم خرجوا من ذلك الى الاعتراف بصحتها والتسليم بها ...

اذا امعنت النظر فى ذلك كله ايقنت

ان هؤلاء المستشرقين يتخبطون في اودية الاوهام وانهم متأثرون باوهامهم وعبثهم بكثير من الحقائق وخضوعا الى الهوى والبغض .

ثانيا — ما اشار اليه السيد ابو الحسن الندوى من ان الصحابة بدأوا في تدوين الحديث في عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك مجموعات من الاحاديث لعدد من الصحابة منها الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان لعلى بن ابى طالب صحيفة ، وكان لانس ولعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن منصور ، وجابر بن عبد الله — لكل منهم صحيفة وهناك صحيفة همام بن منبه ، فاذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الاكبر من الاحاديث التى جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث ، وقد تحقق ان المجموع الاكبر من الاحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب في عصر الرسول وفي عصر الصحابة ، وقد شاع في الناس حتى المثقفين والمؤلفين ان الحديث لم يكتب ولم يسجل الا في القرن الثالث الهجرى ، واحسنهم حالا من يرى انه كتب في القرن الثانى .

وما نشاهد هذا الغلط الا عن طريقين :

الاول : ان عامة المؤرخين يضطرون الى ذكر مدونى الحديث في القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت في القرن الاول لان عامتها فقدت او ضاعت مع انها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة .

الثانى : ان المحدثين يذكرون عدد الاحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور ان يكون في هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت في القرن الأول ، مع ان عدد الاحاديث الصحاح غير المتكررة والمتحررة من المتابعات لا يزال قليلا ، فحديث (انما الأعمال بالنيات) مثلا يروى من سبعمائة طريق ، فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الاحاديث ، فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الاحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على الفين وستمائة وحديثين ...

واحاديث مسلم يبلغ عددها اربعة آلاف حديث ، ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الاول ، وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا في العصر النبوى وفي عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث ، اذا جمعت صحف ومجاميع ابى هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وانس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس .

وبذلك يمكن ان يقال : ان ما ثبت من الاحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون في عصر الصحابة قبل ان يدون (الموطأ) و (الصحاح) بكثير .

● الصبر وقوة الذاكرة ●

وكانت الخطوة التالية ان قام المحدثون فنقبوا في البلاد في البحث من الروايات المختلفة والاسانيد الصحيحة ؟ وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرف من امة من الامم للعلم في التاريخ . يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول في البلاد والسفر في العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ... ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه ، بل تعدت عنايتهم الى الوسائط التى وقعت في رواية الحديث ، وهم الرواة الذين رووا هذه الاحاديث ، فعنوا بمعرفتهم ومعرفة اسمائهم واسماء آبائهم وحوادث حياتهم واخلاقهم ومكانتهم في الامانة والصدق والحفظ ...

● هذا هو الخطر الكامن ●

ولقد عرف عن هؤلاء المستشرقين طابع التحامل الواضح وتزييف النصوص ، في محاولة دعم شبهاتهم ، ومن اقوى الامثلة على ذلك : ان « جولد زيهر » حرف عبارة الامام الزهرى « ان هؤلاء الامراء اكرهونا على كتابة

الأحاديث » الى لفظ (على كتابة أحاديث » فضلا عن اتهامه الامام الزهري بانه واضع حديث فضل المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير ؛ مع ان الزهري لم يلق عبد الملك الا بعد سبع سنوات من مقتل الزبير ...

اما القول الذي يتردد على السنة اصحاب الشبهات مثل قولهم :

« لنرجع الى القرآن الكريم ولكن يجب الا نجعل من انفسنا متعبدين للسنة » فان هذا القول ، كما يقول العلامة محمد اسد يكشف بكل بساطة عن جهل بالاسلام ، ان الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلا يريد ان يدخل قطرا ولكنه لا يريد ان يستعمل المفتاح الاصلي الذي يستطيع به وحده ان يفتح الباب ، ويتساءل : هل هناك مبرر علمي لرفض الحديث على انه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامي ؟ ...

ثم يجيب : انه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل لتحدي الحديث على انه نظام ما ، فان اولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا ان يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي ، لان الجامعين لكتب الحديث الاول ، خصوصا الامام البخاري والامام مسلم ، قد قاموا بكل ما فوق طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضا اشد كثيرا من الذي يلجأ اليه المؤرخون الاوروبيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم ، ويكفي أن نقول انه نشأ من ذلك « علم تام الفروع » غايته الوحيدة البحث في معاني احاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها .

وان رفض الاحاديث الصحيحة جملة واحدة او اقساما ليس حتى اليوم الا قضية ذوق ، وان السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه الى مصدره ، ان السبب يرجع الى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح ، ولكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون ان يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم ، فانهم يحاولون ان يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لانهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ ان يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على اوجه من التفكير السطحي ، اى حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو ...

● بيان ما اجمل القرآن ●

لا مشاحة ان السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للاسلام بعد القرآن باعتباره عقيدة وباعتباره تشريعا وباعتباره اخلاقا ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى في قوله الشريف : (الا اني أوتيت القرآن ومثله معه ، الا يوشك رجل شبعان على اريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، الا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين للناس القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقا على وجوه شتى وعلى انحاء مختلفة وعلى أساليب متعددة ، يبين لهم ذلك بسلوكه ، وبقوله ، وباقراراته ـ يقول : ما تركت شيئا مما أمركم الله به الا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه .

وقد علم النبي الناس بثلاث طرق : تعليماته الشفهية التي هي أقواله ، وسلوكه الشخصي الذي هو اعماله ، وسكوته الذي يعني موافقته الحكيمة على أعمال غيره من الناس .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود : كان بيان رسول الله يشتمل على بيان ما اجمل في كتاب الله ، اجمل القرآن الصلاة والزكاة والحج وفصلها رسول

● لامشاحة أن السنه النبوية الشريفة هى المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن باعتباره عقيدة وباعتباره تشريعا وباعتباره أخلاقا .

الله . بين ما فرض من الصلوات ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها وكيف عمل الحج والعمرة ، كان يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله : صلوا كما رأيتمونى اصلى ... وفى الحج : خذوا عنى مناسككم .

وفرض الله سبحانه الزكاة ولم يبين مقاديرها ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والاموال التى تجب فيها ... وقد بينت السنة ان القاتل لا يرث ، وان الوصية لا تكون فى اكثر من الثلث ، وان الدين يقوم على الوصية .

ومما يروى ان عمران بن حصين قال لرجل يريد ان يقتصر على القرآن دون السنة : انك امرؤ احمق ، اتجد فى كتاب الله الظهر اربعا لا تجهر فيهما بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ...

وقد أشار القرآن الى مكانة السنة والى مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفصيل ما اجمل القرآن وذلك فى آيات بينات :

« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » .

« ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

« واطيعوا الله واطيعوا الرسول » .

« من يطع الرسول فقد اطاع الله » .

« لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

« الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » .

ويقول الدكتور عبد الجليل شلبى : ان الاية الكريمة : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » تدل على ان من وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوضح للناس الاحكام التى نزلت اليهم فى القرآن الكريم . وكان لابد ان يفعل رسول الله والا لم يكن مبلغا من عند الله . وقد كان هذا البيان بالقول والعمل معا . فالسنة اذن مرجع الشريعة الكامل وبيانها الموضح ، كما ان السنة جزء مكمل للقرآن وهى من الله تبارك وتعالى كما أن القرآن من عنده .

وقد اشار الائمة الاعلام الى انه لايرى قول لامام من ائمة المذاهب فى القرنين الثانى والثالث الا وقد سبقه اليه صحابى او تابعى ، وان مكانة السنة النبوية والحديث من الشريعة الاسلامية لاتخفى ، واثرها فى الفقه الاسلامى ثابت منذ عصر النبى والصحابة حتى عصور الاجتهاد واستقرار المذاهب ، وان من يطلع على القرآن والسنة يجد ان للسنة الاثر الاكبر فى اتساع دائرة التشريع الاسلامى وعظمته وخلوده ، هذا التشريع العظيم الذى بهر انظار علماء القانون فى جميع انحاء العالم ، وهو ما حمل ويحمل اعداء الاسلام فى الماضى والحاضر على مهاجمة السنة والتشكيك فى صحتها ورواتها من اعلام الصحابة .